البَابُ الأوّلُ

الفصل الأول

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية فى الرسول :

هناك عدة مظاهر تنم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته ، وتدل على أن اصطفاءه لأداء هذه المهمة القدسية لا يخرجه عن طبيعة الإنسان ، يجوز عليه ما يجوز على أى إنسان آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس .

فهو يأكل قبل الرسالة و بعدها كما يأكل الإنسان ، وينسل قبل الرسالة و بعدها كما ينسل الإنسان[1] ، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى اعتاد أن يسلكها الإنسان فى دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه. يحترف ويتجر على نحو ما يحترف الإنسان ؛ يتجر لتأمين عيشه وعيش من يعوله . يقاوم المعتدى ويهاجمه إن ظن الغلبة عليه ، ويمهله إلى حين حتى يستطيع رده بشخصه أو عن طريق جمعٍ من أعوانه .

يناضل فى الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها ، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان . يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسبما ينجلى له من نفسه ودخيلة أمره ، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسبما تتطلب الظروف والمواطن .

---

[١] فى رواية البخارى : « إنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء . . . »

ولم يشأ الله أن يخرجه عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد ، حسب ما فى علمه ، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالتـه فى جيل أو فى أمة أو للنـاس كافة . والله تعالى قادر على أن يخرجه عن هذه الطبيعة و يمنحه من الوسائل فى الحياة والـكفاح فيها ما ليست للإنسان . لـكنه شاء جل جلاله أن يبقى رسوله للنـاس من الناس ؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى ملَك فضلا عن أن يصل بها إلى مرتبةٍ فوق مرتبة الرسالة والملَك . .

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام فى رده على قومه لما قالوا له : « مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا » : « لا أَقُولُ لـكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ إِنى مَلَكٌ[1] . » . وقوله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام : « قُلْ لَا أَقُولُ لـكم عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لـكم إِنى مَلَكٌ . . . »[2] .

وقد تعنتت كفار قريش مع نبينا صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه ما يدل على أنهم معاندون ، وقالوا : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لنَا منَ الأَرضِ يَنْبُوعًا ، أَوْ تَـكونَ لَكَ جَنَّةٌ منْ نخيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهارَ خِلاَلَهـا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِط السماء كما زَعَمْتَ علينا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِىَ باللهِ وَالملائِـكَةِ قَبِيلاً ، أَوْ يكونَ لَكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فى السماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

[١] آية ٣١ سورة هود . [٢] آية ٥٠ الأنعام .

لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كِتابًا نَقْرَؤُهُ ، قل : سُبْحَانَ رَبى ! هَلْ كنتُ إلاَّ بَشَرًا رَسُولا . وَما مَنَعَ النَّاسَ أنْ يُؤْمِنُوا بِكَ إذْ جاءَهُمُ الهدَى إلاَّ أنْ قالوا أبَعَثَ اللهُ بشَراً رَسُولاً . قُلْ لَوْ كانَ فى الأرْضِ ملائكةٌ يَمْشُونَ مُطمئِنِّينَ لنَزَّلْنَا عليهمْ مِنَ السماءِ مَلَكاً رَسُولًا »[1] .

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسى وماتوا أناسى . كلهم احترف فى سبيل عيشه ، وكلهم ناضل من أجل عقيدته ، وكلهم اجتهد فى تخير وسيلة العيش وطريق النضال ، وكلهم أخطأ وأصاب فى اجتهاده فيما تخير من وسائل وطرق لعيشه وكفاحه[2] .

وفى موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان . نعم فى غمرات الموت كانوا يتشوفون إلى لقيا الله تعالى أكثر من حنينهم للدنيا وما فيها . ذلك لأنهم ركزوا إيمانهم فيما وراء الدنيا بحكم اختيارهم للرسالة ، وإيمانهم إيماناً كاملاً بها . وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات ان قوى أمله فيما هو آت .

وربما فى عيشهم وكفاحهم كانوا أحوج إلى الاجتهاد وإعمال العقل

---

[١] الآيات من ٩٠ ــ ٩٥ سورة الاسراء .

[٢] فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » .

أكثر من غيرهم . لأن الأنبياء ـ وكذا المصلحين فى الجماعة ـ أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلى . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويعترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت فى حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات . ولا يكفى فى سرعة البت هذه حسنُ استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته. فكم فى الفيافى ورءوس الجبال وبطون الأودية من خصوبة عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلى أو قلة الدربة فى معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول ـ وكذا المصلح ـ أكثر من غيره لا نجد بين من اختارهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب .

وكلهم من أجل عيشهم احترفوا لأنهم لم يكونوا من أصحاب اليسار . وربما تشابهوا جميعاً فى مزاولة حرفة بالذات : فكثير منهم نشأ يتيماً أو شبه يتيم ، وكثير منهم قد رعى الغنم، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيراً يأكل من أجره .

وقد تجشم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم طويل الأسفار للتجارة فى

مال غيره بأجر ، وذاق مرارة اليتم ، وحرم حنو الوالد ، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها ، ومن فضائل الرجولة أعلاها ، وسمت به نفسه عن مواطن الترهل والنعومة ، فتسابقت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة وأخصبت عبقريته وتفتحت لإلهام السماء مشاعره ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

من الميسور للرجل أن يستغنى عن الاجتهاد ، وأن ينزوى فى ناحية من نواحى الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة : فمن الميسور أن يتوارى الرجل فى جوف صومعة منقطعاً للتبتل والعبادة حتى يلقى الله ، ومن الميسور أن ينقطع للدنيا ويوليها جميع عنايته ، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلا لها ولا يفكر إلا فى جمعها معرضا عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أبنائها أحداً .

كما أنه من الميسور أيضاً أن يعيش الرجل فى هذه الحياة لا يهدف إلى غاية ولا يسعى إلى غرض طافيا فوق تياراتها تقذف به مع الريح حيث دارت وكيفما اتجهت ، فتارة تراه عابداً مع العباد ، وتارة فاسقاً مع الفساق ، وتارة عطوفاً خيراً ، وأخرى جباراً عتيا . وتارة ينهمك فى جمع المال ، وأخرى يغرق فى السرف والتبذير . فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية . فمثل هذا إن لم يكن مجنوناً فهو أشبه بالمجانين .

كل هـذا ميسور . أما أن يخوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحيـة من نواحيها بطرف ، فيعطى ربه حقه ، ونفسه حقها ، وبنى جنسه حقوقهم ، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم ، يجامل ويواسى ، ويقاطع ويخاصم ، ويهادن ويحارب ، كل فى حدود المصلحة العامة والعدل والعقل ، وهو فى كل ذلك سَلِمَ له دينه وعرضه ، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر ولا يستطيعه إلا أحد رجلين :

١ — رجل ألقى بنفسه بين يدى ملَك الوحى ، يحركه كيف شاء ، وأنى شاء . يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة ، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل . ومثل هذا لا يحتاج فى حياته إلى عبقرية ولا فـكر ، بل ولا إلى عقل . وهذا ما تنزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

٢ — أو رجل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة ويقظة القلب وعبقرية الفهم ما سهل عليه أن يجتهد ويضع كل شىء فى محله وأن يستعمل كل شىء عند ظهور دواعيه . وهذا مقام الأنبياء والمرسلين والمصلحين .

فمن اصطفاهم الله خاضوا الحيـاة فى جميع نواحيهـا وعالجوا كل صعابها وفـكروا وقدروا . وان وقعت من بعضهم فى طريق ذلك هنات فتلك من مقتضيات طبيعـة البشر ، للفرق بـين الرب والمربوب والإله والمألوه . إذ العصمة لاتكون إلا لله وحده .

ونحن نعلم لهذا أنه لا يكفى ليكون الرجل قائداً مصلحاً فى كل ضرب من ضروب الحياة أن يكون حسن السيرة تقيًّا ورعا فحسب ، بل لابد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة ، قوى الحجة صارم العزيمة شديد الشكيمة فى تنفيذ الحق ، فطنا يقظا حذراً لا يخدع .

فكثير من الصحابة عرفوا بالصلاح والتقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلاد والحجاج والحذر : منهم أبوموسى الأشعرى رضى الله عنه . فقد كان ورعا تقيا صالحا خاشعا، ومع ذلك مكر به عمرو بن العاص وخدعه فى التحكيم حتى ظفر به وغلبه .

ومنهم أبوهريرة رضى الله عنه . قد كان عابداً حافظا ولكن لم يبرز اسمه فى عداد شجعان الصحابة ولا ذوى الرأى النافذ فيهم . روى البخارى عن الأعرج قال : قال أبو هريرة : « انى كنت امرأ مسكينا أصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى » . وفى رواية قال : « قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ قد زدت علي ثلاثين فأقمت معه حتى مات ، أدور معه فى بيوت نسائه وأخدمه وأغزو معه وأحج » . وقال محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجرة عائشة فيقال مجنون ومابى جنون ، ومابى إلا

الجوع». وأخرج البغوى عن الأعمش قال : «ما كان أبو هريرة أفضل الأصحاب ولكنه كان أحفظهم » .

ومنهم عبد الله بن عمر . وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أنهكته ، ومع ذلك لما طعن والدُه رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده ، قال لهم : خذوا رأيه ولا يكون هو الخليفة .

ومنهم حسان بن ثابت . فقد روى ابن كثير فى تاريخه : قال عباد بن عبدالله بن الزبير : كانت صفية بنت عبدالمطلب يوم الخندق فى حصن قالت : وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون فى نحور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا ، فقلت : ياحسان ! إن هذا اليهودى كما تراه يطيف بالحصن وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَن وراءه من اليهود ، فانزل إليه واقتله ! قال : يغفر الله لك يابنت عبد المطلب ، والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال ذلك أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان ! انزل فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال : مالى بسلبه حاجة يابنت عبد المطلب .

* * *

وإذ تطلبت صعاب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن و إعمال العقل والاجتهاد فى تخير الرأى الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسله سلامة الجسم ، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة البدنية المثابرة فى التغلب على الصعاب وايجاد حلول لمشاكل الحياة .

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعا ذوى أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة . وربما كان لحرفهم التى زاولوها فى حياتهم قبل البعثة والتكليف بتبليغ رسالة الله دخل فى صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم . وربما كان احترافهم بها من توجيه الله لهم . فقد رعى معظمهم الغنم [١] أو زاول حرفة أخرى [٢] . ولا شك أن فى رعى الغنم أو مزاولة الحرفة دربة على

---

[١] روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم . فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم . كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » . وروى النسائى من حديث نصر بن حزن قال : « افتخر أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث موسى وهو راعى غنم ، وبعث داود وهو راعى غنم ، وبعثت أنا وأنا راعى غنم أهلى » .

[٢] روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده » . قال الحافظ بن حجر : « وجاء عن ابن عباس : أن داود كان زراداً ، وكان آدم حراثاً ، وكان نوح نجاراً ، وكان إدريس خياطاً ، وكان موسى راعياً » . قال الخطابى : إن الله لم يضم النبوة فى أبناء الدنيا والمترفين منهم ، وإنما جعلها فى أهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف .

الصبر على العمل مهما عظم أوشق على النفس[١] ، كما يحفز إلى الاستخفاف بالمكاره والاقدام عند الفزع[٢] .

---

[١] روى البخارى عن البراء بن عازب قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه » . وروى البخارى أيضاً عن جابر بن عبد الله قال : كنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لايعمل فيها المعول) فأخبروه صلى الله عليه وسلم، فقال : « أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر وكنا لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فى الكدية فعاد كثيباً أهيل » .

[٢] روى البخارى عن أنس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم صلى الله عليه وسلم وقد تحقق الخبر ، وهو على فرس عرى ، ما عليه سرج ، وفى عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا » .

الفصل الثانى

رأى بعض العلماء فى جواز اجتهاد الأنبياء :

رأينا أن نقدم بين يدى تفصيل الكلام على اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم جملة من أقوال كبار العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم فى اجتهاد الأنبياء عليهم صلوات الله . ومنها يتبين للقارىء أن الذين ينكرون اجتهاد الأنبياء إنما يغمضون أعينهم ويستغشون ثيابهم حتى لا تتخطف أبصارهم هذه الأدلة القاطعة التى لا يصمد أمام صولتها لجاجة معاند ولا مكابرة جاحد .

ولدى من منع الاجتهاد عن الأنبياء من أمثال أبى على الجبائى وابنه أبى هاشم دليل امتاز بكثرة دورانه على ألسنة الناس . وهو فى واقع الأمر ليس بدليل . وهذا الدليل هو التمسك بقوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى[1] ... » . فقد اقتطع الجبائى هذه الآية عن سابقتها ولاحقتها ، وقذف بها فى آذان الناس . فصارت تلوكها ألسنتهم بدون فكر ولا روية . والعجيب أنا كثيراً ما نسمع من يستدل بها حتى الآن من بين طلاب العلم والعلماء .

---

[١] آية ٣ من سورة النجم .

و إذا قطعنا النظر عن أن سياق الآيات يدل كما فهم كبار المحققين على أن الكلام فى القرآن وان المراد أن هذا القرآن الذى يتلوه عليكم محمد ليس من عنده ، بل هو وحى يوحى إليه من الله ، نقول : إذا قطعنا النظر عن كل ذلك فإنا نقول لكم : ما ذا تريدون بـ « ما ينطق عن الهوى » ؟ أتريدون أنه صلى الله عليه وسلم لا يلفظ بقول مطلقا فى أى جزئية إلا بوحى . حتى قوله : كيف أنت يافلان ، أو أين ذاهب ، أو مزاحه مع زوجه ، أو خادمه ، أو قوله : أنا عطشان أو جوعان ، أو اسقنى مثلا . إن قلتم إن كل هذا بوحى خاص ، قلنا لكم قد سقط الخطاب معكم .

و إن أردتم أنه لا ينطق عن الهوى بمعنى أنه لا يقول عن شهوة وغرض بل ما يقوله لمصلحة ، قلنا نحن معكم فى هـذا . ولكن لا يفيدكم فى منع الاجتهاد . لأن الاجتهاد لا يصدر منه إلا تحت اعتقاد أنه مصلحة . و إن ظهر خلاف ذلك فهو معذور .

و إن أردتم أنه لا ينطق عن هوى بمعنى أنه أوحى إليه بأنه يجتهد ، فاجتهاده بإذن ، قلنا لكم ونحن نقول بذلك . ولا مانع حينئذ من أن يجتهد ولا يصيب فى جزئية . لأنه لا تلازم بين الإذن فى الاجتهاد و بين الإصابة فى كل جزئية ، كما أنه لا تلازم بين الأمر بالصلاة و بين وقوعها كما أمر الله ، بل قد يعتريه فيها السهو فيصلى الرباعية مثلا خمساً .

وإن قلتم إن المراد ما ينطق عن الهوى فى الأمور الشرعيـة فقط ، أى ما يكون فعله لها يعتبر تشريعاً مرغباً فيه ، قلنا لـكم : وهل أخرجتم من أعماله الشرعية سوى خصوصياته كنـكاح ما فوق الأربع ، وسوى جبلياته كالجوع والعطش ، والصحة والمرض . أما ما عدا ذلك من أقواله وأفعـاله وسكوته فكل ذلك أدخلتموه فى أعمـاله التشريعية ، فقلتم : يُسنّ لنا أن نرخى فى غطاء الرأس عذبة ، كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل . وقلتم عند ما نقل عنه فى الصحيح أنه صلى الله عليـه وسلم قبَّل ابنه ابراهيم وشمه ـ : وفى الحديث مشروعية تقبيل الوالد لولده وشمه . وقلتم ـ لما فى صلى الله عليه وسلم ثوبه ـ : يؤخذ من الحديث مشرعية تفلية المرء ثوبه . فهل كل ما كان من هذا النوع ـ وهو لا يعد ولا يحصى ولا يخلو عنه صلى الله عليه وسلم فى جل حياته الشريفة ـ بوحى ؟ . أظن أنه لا يقول بذلك عاقل .

رأى ابن حزم :

وابن حزم فى كتابه « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » يقول :

« قد يقع من الأنبياء قصد الشىء يريدون به وجه الله تعـالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شىء من هـذا أصلا . بل ينبههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده . وربمـا عاتبهم على ذلك

بالكلام ، كما فعل مع نبينا صلى الله عليه وسلم فى أمر « زينب »[١] ، وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام .

والأنبياء عليهم السلام بخلافنا فى هذا . فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده تعالى ، بل نحن مأجورون على هذا أجراً واحداً ...

ثم ذكر عن آدم قوله تعالى : « فَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ[٢] » وقوله : « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب . ثم قال : وهذا وقع منه عن قصد إلى خلاف ما أمر به متأولا فى ذلك ولا يدرى أنه عاص ؛ بل كان ظانًّا أن الأمر للندب مثلا أو النهى للكراهة . وهذا شىء يقع فيه العلماء والفقهاء كثيراً . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ، ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

ثم قال : وقال لنوح : « فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ[٣] » لأن نوحاً ظن أن ابنه من أهله ، وأن المراد أهل القرابة . فلما علم أن هذا ليس مراداً ندم ، وليس هنا تعمد لمعصية .

---

[١] قصة زينب وابن أم مكتوم سيأتى تفصيلها بعد . [٢] آية ١٢١ سورة طه .
[٣] آية ٤٦ سورة هود .

وقال (الله) فى يونس : [وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] (١) .

وقال (الله) لنبينا صلى الله عليه وسلم : [فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلاَ أَنْ تداركهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وهوَ مَذْمُومٌ] (٢) . ثم قال (صاحب الفِصَل) : إنه غاضب قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوتب بذلك ، وإن كان ظانًّا أن هذا ليس عليه فيه شيء . وهـذا هو ما أراد الله من نبينا صلى الله عليه وسلم حين نهـاه عن مغاضبة قومه ، وأمره بالصـبر على أذاهم . وأما إخبار الله بأنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التى تداركه بها للبث معاقباً فى بطن الحوت ، فهـذا هو ما تقرر آنفاً من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيراً إذ لم يوافق مراد الله . وعلى هذا الوجه أقر يونس عليه السلام على نفسه بأنه كان من الظالمين . » (٣) .

---

[١] آية ٨٧ سورة الأنبياء .

[٢] آية ٤٨، ٤٩ سورة نون

[٣] ملخص من كتاب « الفصـل فى الملل والأهواء والنحـل » جـ ٤ ص ٢ طبعة صبيح سنة ١٣٤٧ هـ .

رأى ابن تيمية :

وابن تيمية يرى أن « الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة . بخلاف غير الأنبياء فإنهم غير معصومين، ولو كانوا أولياء الله » .

وأما العصمة فى غير ما يتعلق بالتبليغ فللناس فيه نزاع : والقول الذى عليه جمهور الناس ـ وهو الموافق للمنقول عن السلف ـ إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقاً .

واحتج من قال إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب بأن التأسى بهم مشروع . وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذنب . وأجيب بأن التأسى مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ، كما أن أمر الله ونهيه انما تجب طاعته فيما لم ينسخ منه ، أما ما نسخ منه فلا يكون مأموراً به فضلا عن وجوب طاعته[1] .

---

[١] ونقول أيضاً لا نزاع بيننا وبينكم فى أن التأسى به صلى الله عليه وسلم فى الصلاة مشروع بل واجب ، ومع ذلك يقع منه السهو والنسيان ويراجع فى سهوه ويصحح =

احتجوا أيضاً بأن الذنوب تنافى الكمال وأنها توجب التنفير ، ونحو هذا من الحجج العقلية . ورُدَّ بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك و إلا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، وكان يونس بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع . قال تعالى : [فاصْبِرْ لحكمِ رَبِّكَ وَلاَ تكنْ كصاحِبِ الحوتِ إذْ نادَى وَهوَ مَكْظُوم ، لوْ لاَ أنْ تداركهُ نعمةٌ منْ رَبِّهِ لنُبِذَ بالعَراءِ وهوَ مَذْمُوم فاجْتَبَاهُ ربُّهُ فجعلهُ مِنَ الصَّالحينَ] . وهذه الحال الأخير بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه : [فالْتَقَمهُ الحوتُ وهوَ مُليمٌ] فأخبر سبحانه أنه فى تلك الحال مليم . والمليم هو الذى فعل ما يلام عليه ، فكان حاله بعد قوله : [لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ سُبحانكَ إنى كنتُ منَ الظالمينَ] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان . والاعتبار بكمال النهاية ، لا بما جرى فى البداية . والأعمال بخواتيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً ، ثم علمه فنقله من حال النقص الى حال الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما

= ما سها عنه ، فلم لا يكون الخطأ فى الاجتهاد كوقوع السهو فى العباد والكل ينبه صلى الله عليه وسلم عليه ؟ . روى البخارى عن ابن مسعود ـ عند ما سها صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وذكروه ـ أنه قال : [لو حدث شىء فى الصلاة لنبأتكم به ، ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى] .

وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال . ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى حال النهاية فى أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائماً يبادرون إلى التوبة والاستغفار عند الهفوة . والقرآن شاهد عدل .

فها هو ذا لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار . كقول آدم وزوجه : [رَبَّنا ظَلمنا أَنفُسَنا وإنْ لم تَغفرْ لنَا وترحمنا لنكُونَنَّ منَ الخاسرينَ] . وقول نوح : [رَبِّ إنى أعُوذُ بكَ أنْ أسألكَ ما ليسَ لى به عِلمٌ وإلاَّ تَغفِرْ لِى وترحمنِى أكنْ مِنَ الخَاسرينَ] . وقول الخليل : [وَالذِى أطْمَعُ أنْ يَغفرَ لِى خَطيئَتِى يومَ الدِّين] . وقول موسى : [رَبِّ إنى ظَلَمْتُ نفسى فاغفرْ لى] . وقوله : [فلمَّا أَفَاقَ قالَ سُبْحَانكَ تُبتُ إليكَ وَأنا أوَّلُ المؤمنينَ] . وقوله تعالى فى داود : [فاستغفرَ رَبَّهُ وخرَّ رَاكِعاً وأنابَ ، فَغَفَرْنا لهُ ذلِكَ وَإنَّ لهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآب] . . . إلى غير ذلك .

والذين لا يقولون بصدور مخالف عن الأنبياء تأولوا كل ذلك بمثل

تأويلات الجهمية [١] والقدرية [٢] لنصوص الصفات والمعاد . وهى من جنس تأويلات الباطنية [٣] والقرامطة [٤] التى يُعلم بالضرورة أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع فى تكذيبهم ، ويريد الإيمان بهم فيقع فى الكفر بهم .

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع ،والعقل، والإجماع ،وهى العصمة فى التبليغ لم ينتفعوا بها إذا كانوا لا يقرون بموجب ما بلَّغته الأنبياء . ومن هنا غلط من غلط فى تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فانهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا . ولو اعتبروا حال الأنبياء

---

[١] أصحاب جهم بن صفوان ، قالوا : لاقدرة للعبد ، والله لا يعلم الشئ قبل وقوعه وعلمه حادث لافى محل ، ولا يتصف بما يتصف به غيره كالعلم والقدرة . ويسمون المعطلة أيضا . فالمعطلة والجهمية فرقة واحدة .

[٢] القدرية هم المعتزلة ، ولقبوا بذلك لأنهم أسندوا أفعال العباد إلى قدرهم . ويلقبون بأصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب « الصلاح » ونفى الصفات القديمة .

[٣] فرقة من فرق الشيعة ، ويسمون أيضا الإسماعيلية . وسموا باطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره . ولقبوا بالإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر ووقفهم بالإمامة عليه .

[٤] لقبوا بذلك لأن أولهم الداعى إلى المذهب ، وهو حمدان قرمط ، ظهر بالكوفة سنة ٢٧٠ هـ . ومن زعمهم أن لا غسل من الجنابة ، وأن الخمر حلال ، وأن الحج إلى بيت المقدس . . . .

والصالحين بعد الكمال ورضى الرحمن ودخول الجنان ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، لرجعوا عن خطئهم .

وما يظنه بعض الناس من أن من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ، ليس بصواب . بل الاعتبار بالعاقبة ، فأيهما كان أتقى فى عاقبته كان أفضل . إذ من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بعد كفرهم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم . وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام ومع ذلك لما أسلما تقدما من سبقهما فى الاسلام ، لما ظهر منهما من كمال الجهاد للكفار والانتصار لله ورسوله . وذلك يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية . وقد ورد أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد يأس .

فمن ظن أن صاحب التوبة النصوح يكون ناقصاً فقد غلط غلطاً عظيما . فان الذم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منها شيء أصلا . لكن إن أسرع بالتوبة لم يلحقه شيء ، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنب والتوبة ما يناسب حاله من الذم والعقاب .

والأنبياء صلوات الله عليهم كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ولا يصبرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك . ومن أخر ذلك زمناً يسيراً كفر الله عنه ذلك ، بما يبتليه به . كما فعل بذى النون على المشهور من أن إلقاءه كان بعد النبوة . أما إذا كان قبلها فلا يحتاج إلى ذلك . ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة . لكن المنازعون يتأولونها كتأويلات الباطنية ، كما تقدم . وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدبرها . فهى من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

من ذلك تأويلهم قوله تعالى : [لِيَغْفِرَ اللهُ لكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تأَخَّرَ][1] . قالوا : المراد ذنب أمتك . وذلك باطل من وجوه :

١ ـ قوله تعالى : [كلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ][2] . وقال : [فإنمَا عليهِ مَا حُمِّلَ وَعليكم مَا حُمِّلتمْ][3] .

٢ ـ أنه قد ميز بين ذنبه صلى الله عليه وسلم وذنوب أمته ، بقوله : [واسْتَغفرْ لذنبكَ والمؤمنينَ والمؤمناتِ][4] . فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنباً له ؟ .

٣ ـ أن هذه الآية لما نزلت همَّ بعض الصحابة بالتشديد على أنفسهم بعدم قربان النساء والصيام دائماً تقرباً لله بذلك . فلما علم بذلك

[١] آية ١ سورة الفتح [٢] آية ٣٨ سورة المدثر [٣] آية ٥٤ سورة النور
[٤] آية ١٩ سورة محمد

صلى الله عليه وسلم غضب ، وقال : [إنى أقوم ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى ! فقالوا : إنا لسنا مثلك يارسول الله ، فان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا . أفلا أكون عبداً شكوراً ؟] [1] .

فدل هذا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أن قوله تعالى : [لِيَغْفِرَ لكَ . . .] . خاص به دون أمته . وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : [اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وما أنت أعلم به منى . اللم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى] . وأخرج الصحيحان أن آية الفتح نزلت مَرْجِعَه صلى الله عليه وسلم من الحديبية . فقال صلى الله عليه وسلم : [لقد نزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض، ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئاً مريئاً يانبى الله ، بين الله ما يفعل بك . فما يفعل بنا ؟ . فنزلت : [لِيُدْخِلَ المؤمنينَ وَالمؤمناتِ جنَّاتٍ تجرى منْ تحتها الأنهارُ . . . حتى بلغ فوزاً عَظيما] . وروى البخارى عن المغيرة : [كان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه أو ساقاه . فقيل : لم هذا وقد غفر لك ؟ . فقال : أفلا أكون عبداً شكورا ؟] .

---

[١] فى رواية البخارى .

فكل هـذه الروايات الصحيحة الصريحة تدل على بطلان قول من رأى أن الذنب المغفور ذنب أمته . ولـكنه التعصب للرأى واللجاجة فى غير الحق »[١] .

رأى القاضى عياض :

قال القاضى عياض فى « الشفاء »[٢] :

١ ـ «وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد صلى الله عليه وسلم الشىء منها على وجه و يظهر خلافه . (أى يظهر أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر[٣]) . ثم ذكر حديث تأبير النخل المروى عن مسلم والذى سيأتى تفصيل الكلام فيه . وفى آخره قال صلى الله عليه وسلم : إنمـا أنا بشر ، إذا أمرتـكم بشىء من دينكم فخذوا به ، و إذا أمرتـكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر . قال شارح الشفاء ، أى قد أرى الرأى فى أمور الدنيا والأمر بخلافه ، فلا يجب اتباعه . ثم ذكر رواية مسلم الأخرى التى فيها : [إنمـا ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن] .

---

[١] فتاوى ابن تيمية ، حـ ٢ ص ٢٨٣ طبع كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

[٢] حـ ٤ من ص ٢٦٥ طبع المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٧ هـ .

[٣] تعليق شهاب الدين الخفاجى .

ويحكى عن ابن رشد أنه فى كتاب « التحصيل والبيان » يذكر أن هذا الحديث ـ يشير لحديث مسلم فى تأبير النخل ـ روى بألفاظ مختلفة ، متقاربة معنى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : [ما أنا بزارع ولا صاحب نخل] . ويعلق الوليد[1] بقوله: إنه صلى الله عليه وسلم بيّن أنه لا تأثير فى الصلاح والفساد لغير الله تعالى ، إلا أن الله تعالى قد يجرى العادة بأسباب تعلم بالتجربة ، كالتأبير . وهو صلى الله عليه وسلم لم يسبق له تجربة فيه . وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : [إنما أنا بشر ، فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسى فإنما أنا بشر أخطىء وأصيب] .

والخفاجى شارح الشفاء ـ بعد أن ذكر حادثة نزول المسلمين بأدنى مياه بدر التى سيأتى شرحها ، ومعارضة الحباب بن المنذر وقوله : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : [بل هو الحرب والرأى ... الخ] . فأشار الحباب بمنزل آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : [أشرت بالرأى الصائب !] وفعل ما قاله الحباب ـ علق بقوله : إن العرب أدرى بالحروب ، لأنهم جربوها وقاسوا شدائدها .

ويستطرد ـ القاضى عياض ـ فى ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم فى

---

[١] لقب بن رشد .

أمور الدنيا ، فيروى حادثة عزمه صلى الله عليه وسلم على مصالحة أعدائه يوم الخندق على ثمر المدينة[١] . فلما استشار صلى الله عليه وسلم الأنصار وعارضوا رأيه رجع عنه . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله :

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التى لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، كل هذه يجوز عليه صلى الله عليه وسلم فيها ما ذكرناه من اعتقاد شيء على وجه فيظهر على خلافه . إذ ليس فى هذا نقيصة ، إنما هى أمور اعتيادية يعرفها من جربها وشغل نفسه بها ، وهو صلى الله عليه وسلم مشحون القلب بمعرفة الربوبية .

٢ ـ وينتقل بعد ذلك إلى الحديث بما يعتقده صلى الله عليه وسلم فى أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة المحق من المبطل ، والمصلح من المفسد ، ويحكم بأن : كل ذلك على السبيل فى أمور الدنيا التى قد يظهر له منها ما الأمر على خلافه أحياناً[٢] .

---

[١] سيأتى الحديث عنه .

[٢] ويعلله الخفاجى ، صاحب الشرح عليه، بأن الله اختار له ذلك لئلا يضل به بعض أمته لتوهمهم أنه يعلم الغيب فيقعون فيما وقع فيه النصارى .

ويقول صاحب « المنار » فى هذا المعنى : وكان من حكمة الله فى تربية رسوله صلى الله عليه وسلم وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده الشخصى البشرى فيها لتكون أوقع فى نفسه ونفس أتباعه . وأيضا لتكون نذيرا قائما دائما لمن تحدثه نفسه بما وقعت =

ويؤيد حكمه هذا بذكر حديث الشيخين وأبى داود ـ واللفظ لأبى داود ـ قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحَن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من نار »[1] .

رأى ابن خلدون :

وأما ابن خلدون فيتعرض ـ فى مقدمته[2] ـ عند الحديث عن طب البادية لما كان يراه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر العلل وعلاجها ، ويذكر أن رأيه فى ذلك لا يتصل بالوحى ؛ بل يعد من الأحوال التى هى عادة وجبلة له . وعبارته : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه . وربما

= فيه النصارى مع عيسى عليه السلام ، فتكون حدا فاصلا واضحا بين صفات البشر وصفات خالق البشر ، وصفات الحادث الذى يتلقى عن غيره ما يكمله ، وبين صفات القديم الذى يفيض من فيض علمه على من يختار من عباده . سبحانه هو وحده ، الذى ليس كمثله شىء ! .

[١] قال شارح الشفاء فى تعليقه على هذا : لما أمر الله تعالى أمته بالاقتداء به واتباعه فى قضاياه وأحكامه كان حكمه على هذا النحو ، وإلا لم يكن للأمة سبيل للاقتداء به فى شىء من ذلك ، وليقتدى به حكام أمته ، ويستوثقوا بما يؤثر عنه ، وينضبط قانون شريعته .

[٢] طبع المطبعة الأميرية ؛ سنة ١٣٢١ هـ ص ٤٦٧ .

يصح منـه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : كالحارث ابن كِلْدة وغيره .

والطب المنقول فى الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحى فى شىء ، وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النبى صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر أحواله التى هى عادة وجبلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل . فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات . وقد وقع له فى شأن تأبير النخل ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

فلا ينبغى أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه . اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيمانى فيكون له أثر عظيم فى النفع . وليس ذلك فى الطب المزاجى ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع فى مداواة المبطون بالعسل . والله الهادى إلى الصواب ، لا رب سواه » .

رأى الكمال بن الهمام :

والكمال بن الهمام فى كتابه « التحرير » يذكر أن أكثر الأقوال الفقهية ترى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاجتهاد مطلقاً فى الأحكام الشرعية ، والحروب ، والأمور الدينية من غير تقييد بشىء منها . ويشير إلى أن ذلك مذهب عامة الأصوليين : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعامة أهل الحديث[1] كذلك ثم يسوق قوله تعالى : « عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » ،

---

[١] وجاء فى التحرير وشرحه أيضا :

« وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة لا يصح أن يكون صلى الله عليه وسلم مأمورا بالاجتهاد فى الأحكام الشرعية .

وقال بعد ذلك : وقيل كان له الاجتهاد فى الأمور الدينية والحروب دون الأحكام : وقيل كان له الاجتهاد فى الحروب فقط ، وهو محكى عن القاضى والجبائى .

وقال القرافى فى شرح تنقيح الفصول : قال الشافعى وأبو يوسف وقع منه صلى الله عليه وسلم الاجتهاد . وقال أبوعلى وأبو هاشم : لم يكن متعبدا به لقوله تعالى : إن هو إلا وحى يوحى . وقال بعضهم : كان له صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الحروب والآراء دون الأحكام . وتوقف أكثر المحققين . وقال ابن الحاجب وشارحه العضد : المختار وقوعه ، لنا : عفا الله عنك لم أذنت لهم . عاتبه على حكمه ، ومثل ذلك لا يكون فيما علم بالوحى . وقال صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى . وسوق الهدى حكم شرعى . أى لو علمت أولا ما علمت آخراً لما فعلت . ومثل ذلك لايستقيم إلا فيما عمل بالرأى . قال السعد فى الحاشية : قوله عاتبه على حكمه الذى هو الأذن بالتخلف عن تبوك لمن ظهر نفاقهم . وهذا يقوم حجة على من منع اجتهاده مطلقا . أما من جوزه فى الحروب وأمور الدنيا دون الأحكام الشرعية التى تتعلق بذلك فالحجة عليه قوله صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى . . . الحديث . ولذا صرح بأن سوق الهدى حكم شرعى . وقال العطار فى حاشيته على شرح الجلال المحلى : والغالب على الظن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يجتهد فى قواعد أصول الفقه كما سيأتى ، وكان يجتهد فى الفروع » .

و يعلق عليها بقوله : ولا عتب فيما هو وحى من عند الله ، و يرد ما قاله الكرمانى من أنه عتاب على ترك الأولى ، بأن ظاهر الآية بخالفه[١] .

ثم يذكر أنه قد جاء فى الحديث الصحيح : « أنه بعد أن مال صلى الله عليه وسلم إلى رأى أبى بكر وأخذ الفداء ، وخالف بذلك رأى عمر القائل بالقتل ، ونزلت الآية الكريمة السابقة : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ . . . » بكى صلى الله عليه وسلم و بكى معه أبو بكر ، قال عمر : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه فقال صلى الله عليه وسلم : أبكى الذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ، وقال : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر » . و يستنتج منه : أنه يدل على أن أخذ الفداء كان باجتهاد ، وكان خطأً عظيماً ، و يعلل ذلك بقوله : لأن العذاب لا يكون لترك الأولى ، ثم يستطرد فيقول : فإن قلت : كيف هذا وقد تقرر أن المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد ؟ ، قلت : الأجر على تقدير أن لا يكون خلاف ما أدى إليه الاجتهاد ظاهراً .

---

[١] قال شارح مسلم الثبوت : وقد يقال : هذا لايدل على كون أخذ الفداء بالرأى فإنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم مخيراً بين الفداء والقتل ، و يكون القتل أولى ، والعتاب لترك الأولى . ولا يخفى أن هذا بعيد . فإن مثل هذا الوعيد الشديد لايكون على خلاف الأولى .

فأما إذا كان ظاهراً ، فلا . بل يستحق المجتهد العذاب . ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين . فحيث كان خلاف رأيهم ظاهراً استحقوا العذاب . قال صلى الله عليه وسلم : « كلهم فى النار إلا واحدة » . فإن قلت إذا كانت الحكمة فى عدم تعذيب المخطىء أنه بذل وسعه فى طلب الصواب فلا يفترق الحال فى كون المجتهَد فيه عملياً أو اعتقادياً ، فلِمَ حكمتم بعدم نجاة المبتدعة وهم مجتهدون فى العقيدة ؟ قلت : فى الاعتقاد لم يكن المحل صالحاً للاجتهاد ، لوجود النص المفيد للقطع ، والشارع قد منع الخوض فى ذلك .

ثم قال : وقد ثبت اجتهاده صلى الله عليه وسلم فى الشرعيات ، فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سُقْت الهَدْى ، فعلم أنه لم يسق بوحى ، وإلا لم يقل ذلك . وأيضاً لو كان سائقاً بالوحى لكان عالمه بالمصلحة كعدم علمه بها[1] ـ وسوق الهدى مندوب ـ فقد اجتهد فى حكم شرعى . ثم قال : إلا أنه صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ . ثم قال : ولا يبعد أن يقال : إن فى جواز الخطأ فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان فى أعلى الدرجات يحتمل الخطأ ، بخلاف الوحى . ثم قال : وقول من أنكر وقوع الخطأ فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتأول مثل آية : [عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ] . وآية : [مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ . . . الخ] على خلاف ظاهرهما على وجه يخل بكمال

[١] أى فلا يصح منه (ص) الندم على سوق الهدى

بلاغة القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه ، قولٌ لا ينبغى أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم فى علو شأن الأنبياء . لأن خطأهم فى الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم. أى بخلاف الإخلال ببلاغة القرآن فإنه شديد الخطر، لايقدم على سببه مسلم . ثم قال : وكان الخطأ فى مسألة الأسرى أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب لإسلامهم ، وفداءهم يتقوى به على الجهاد . وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأرهب لمن وراءهم ، وأفل لشوكتهم . ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لمخالفته الأولى ، كما قال الكرمانى . لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى . ثم قال : واتفقوا على أنه صلى الله عليه وسلم لا يقر على الخطأ .

ثم ينتقل ـ الكمال ابن الهمام ـ لمعالجة نقطة أخرى ، وهى الاجتهاد فى الأحكام الفقهية ، فيقول : وأما الأحكام الفقهية فمنكر الضرورى منها ـ وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وحرمة الزنا والخمر ، وقتل النفس المحرمة ، والسرقة ـ كافر « لأن إنكار ما هو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إنكارها باجتهاد باطل ، لانتفاء شرط الاجتهاد ، وهو كون المجتهد فيه نظريا بأن لا يكون

خلافه بدهيا[١]. ومنكر غير الضرورى من القواعد الأصلية[٢] ككون الإجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، آثم . ومنكر غير الأصلية وهى الأحكام الفرعيـة الاجتهادية فالقطع على أنه لا إثم فيهـا على المخطىء بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون فى مقابله دليـل قاطع من نص أو إجماع ، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأثيم المخطىء فيهـا ، إذ شاع اختلافهم فى المسائل الاجتهادية ولا بد من خطأ واحد من المتناقضين ولم ينقل تأثيم واحد لغيره ، ولو وجـد لشاع لأنه أمر خطير . وعدد وقائع الخلاف من زمن الصحابة إلى انقراض المجتهدين أكثر من أن يحصى .

---

[١] روى البخارى (ج ١٢ ص ١٦٢ فى الديات) عن عبـد الله بن مسعود ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحـدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة » . قال الحافظ بن حجر : قال ابن دقيق العيد : قد يؤخذ من قوله « المفارق لدينه التارك للجماعة » أن المراد المخالف لأهل الاجماع فيكون متمسكا لمن يقول : مخالف الإجماع كافر . وقد نسب ذلك لبعض الناس ، وليس ذلك بالهين : فإن المسائل الإجماعيـة تارة يصحبها التواتر بالنقل عن صاحب الشرع كوجوب الصلاة مثلا ، وتارة لا يصحبها التواتر . فالأول يكفر جاحده لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع . والثانى لا يكفر به . قال شيخنا فى شرح الترمـذى : الصحيح فى تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعـلم وجوبه من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس . ومنهم من عبر بإنكار ما علم وجوبه بالتواتر .

[٢] هى التى ينبنى عليها الفروع .

ويستطرد فيقول : وقال الجاحظ : لا إثم على مجتهد أى مجتهد كان ، ولو كان الخطأ منه واقعاً فى نفى الإسلام، وكان الاجتهاد من غيرالمسلم . وتجرى على النافى المذكور أحكام الكفار ، لأنه لا سبيل إلى إجراء أحكام المسلمين لعدم الإسلام ولا واسطة . وما قاله الجاحظ من نفى الإثم هو مراد العنبرى[1] بقوله : المجتهد فى العقليات مصيب . وجميع المسلمين على خلاف رأيهما .

ثم ينقل عنهما فيحكى أنهما يقولان : تكليف مجتهدى الكفار بنقيض مجتهدهم تكليف بمالا يطاق ، فلم يكلف إلا بما فى وسعه من الاجتهاد وقد فعل. ويذكر أنه أجيب بمنع أنه فعل ما كلف به . إذ لا شك أن على هذا المطلوب الذى كلف بالوصول إليه وهو الإسلام أدلة قطعية ظاهرة بحيث لو وقع نظره فى موادها الموجودة فى النفس والآفاق المنادية بلسان الحال إن الطريق هكذا لا يتغير لظهوره كالشمس ـ لوصل قطعا . فإذا نظر ولم يصل للحق مع ذلك علم أنه فقد شرطاً من شروط النظر ، لتقصيره وعدم التفاته إلى ما يرشده لانهماكه فى مطمورة التقليد للآباء » .

---

[١] هو عبد الله بن الحسين العنبرى من المعتزلة (كما قال الآمدى فى الأحكام) .

الفصل الثالث

بعض أمثلة من اجتهاد الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم :

جاء فى القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث منها بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء عن اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحياً ، وإلا لو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم بها لما صح أن يوجه الله إليهم لوما ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضراعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ويقول : ائتوا نوحا أول الرسل وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتى من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة

أبيكم آدم ؟ اذهبوا إلى نوح ! ، وفى رواية : إنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ! ، اذهبوا إلى غيرى ! ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه خليلا ! (وفى رواية ويذكر سؤال ربه ما ليس له به علم ـ قال ابن حجر ، تعليقاً على ذلك ، فخشى أن تكون الشفاعة لأهل الموقف من ذلك ـ) . . . إلى أن قال فى الحديث : فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته (وفى رواية يقول : إنى قتلت نفساً بغير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبى) . . . الخ » .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن يأتى بفارسٍ يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ! ، فلم يقل : إن شاء الله ! . فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .

والحافظ بن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : نبه صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض . ولذلك نسى سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر . . . ثم قال : وكأن سليمان عليه السلام نسى بعد تذكيره لشىء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سـواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضى الله عنهما تنبئ عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليـه السلام ، كل منهم إما أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى الرأى أو نسيان منه ، أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحى الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، جاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان . يتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شـأنه وتزداد شوقاً إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لمـا يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله ولله لوجب أن يتحقق مضمون قوله و يتنزه عن الخطأ فعله حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . و إلا كان فى رسالة الله مالا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منـذ الأزل إلى الأبد [١] .

---

[١] وقد تقدم بعض ما وقع من بعض الانبياء غير ما ذكر هنا . انظر كلام ابن حزم وابن تيمية فى الفصل الثانى من الباب الأول صفحة (٣١ ـ ٣٤) .